تطاحن الدول

في القرن الرابع عشر قبل المسيح

بقلم الأمير موريس شهاب امين دار الآثار اللبنانية

الدول المتنازعة

كان القرن الرابع عشر قبل المسيح عند الاقدمين كالقرن العشرين في ايامنا هذه : كثرت فيه العلاقات السياسية ، وسُنَّت لها الشرائع المحكمة تجنباً للخلاف بين الدول الكبرى . وذلك لان الاسيويين ، بعد ان اغاروا على مصر بجماهيرهم ، وملكوها بضعة قرون ، طُردوا منها ؛ وقام المصريون يفتحون البلاد الاسيوية دفعا للغارات ، وحفظا لحدودهم ، كما احتلّ الفرنسويون اليوم بلاد الروهر ، وقايةً لبلادهم من كرّ الغارة عليها

وكان المصريين النفع الجزيل من احتلال البلاد السورية ، نظرًا لما في الجبال اللبنانية من طيب الخشب وهو نادر في مصر ، واساطيل البلاد الكنعانية اي الفنيقية ، تخدمهم جلّ الخدمة ، وإن لم يكن للكنعانيين ملك البحار قبل القرن العاشر

وقد ساعدت الظروف فراعنة مصر ، فقادتهم الاقدار من نصر الى آخر ، حتى اصبح الفتح غريزة فيهم يتوارثون حبه ، وقد ادّعوا ان البلاد المفتوحة انما هي من مستعمرات اجدادهم ، ومن الواجب عليهم ان يعيدوها لأمّهم . واتفقت مصالحهم الاقتصادية والسياسية مع هذه المبادئ الارثية ، فزادتها قوة . وكان الفرعون عند عودته من الفتح ينعم على الاله آمون ، اله عاصمته الجنوبية ، باعظم الهدايا حتى اصبحت اوقاف هيكل الاله وثروته توازي ملك الفراعنة انفسهم . وما زالت الفتوح تتلو الفتوح ، حتى اصطدم المصريون بدولة عظيمة الشأن ملكت معظم آسية الصغرى ، واكثر البلاد السورية الشمالية ، الا وهي مملكة الحثيين

اما الحثيون فهم شعب عظيم نجهل عنه كثيرًا ، لاننا حتى الآن لم نتوفق

الى حلّ لغز كتابته ، وهي على الغالب رَسْمٌ من نوع الكتابة الهيروغليفية في مصر . وفي المتحف اللبناني غرفة بكاملها فُرشت جدرانها بالكتابة الحثية التصويرية المنقولة عن صخور جبال كيليكية . واما ما نعلمه عن هذه الدولة العظيمة فقد ابدتهُ لنا الحفريات في جرابلس ، وفي عاصمة البلاد الحثية بوغازكي، المدعوة قديماً « حتوسيل » ، على مقربة من نهر كيزيل ارمك في منتصف آسية الصغرى . وكتابة الحثيين على شكلين : تصويرية ، وقد اتيت على ذكرها ؛ ومسمارية ، وقد أُخذت عن البلاد الكلدانية الممتدة ما بين النهرين . وبواسطة هذه الكتابة المسمارية ، المعروفة معرفة توشك ان تكون تامة ، تمكنّا من الاطلاع على سياسة الحثيين وتجارتهم

ولم يكن في ذلك العصر ، في جميع الشرق الادنى ، مملكة تضاهي بنفوذها الاقتصادي ممالك المصريين والحثيين سوى الدول المتعددة في جزر بحر ايجي ، والقسم الكبير من الشاطئ كطروادة مثلاً ، مع معظم جزيرة قبرص

وقد اشتهر اهل الجزر بذوقهم السليم في الفنون الجميلة ، فكان منهم البناؤون الماهرون ، ولهم من ماضيهم تاريخ مجيد عرفناه حتى نحو الثلاثة آلاف سنة قبل المسيح . وكانوا على حذق عظيم في فن البحارة ، وهم تجّارة طبعاً ، وقد جابوا بسفنهم البحر المتوسط والقوا نفوذهم على جميع اطرافه ، حتى قلّد صناعتهم اهل فنيقية وفلسطين وسورية ، اي الكنعانيون والاراميون ، لان اسماء فنيقية وفلسطين وسورية لم تُطلق على هذه البلاد الّا منذ القرن السابع قبل المسيح . وفي المتحف الوطني من صنع اهل الجزر ، او مما نُقل عن صناعتهم ، خزف وتحف جميلة الهيئة والرسم . وكثيراً ما استُعملت هذه الخزف الفخارية لنقل الطيوب، وزيوت الجزر ، وخمورها المشهورة . ويرى المطالع ، في الرسم ١ ، بعض الآنية من عمل الجزر يقدّمها سكان جزيرة كريت الى فرعون مصر .

وقد طمر النسيان منذ القدم هذه المدنية الرائعة ، حتى ان هوميروس الشاعر في القرن الثامن قبل المسيح ، حين ابدع إلياذته ، جهل كيان هذه المدنية نوعاً ما ، ونسب خطاء بدّعها الى غيرها من المدنيات . وبقيت مدنية اهل الجزر مجهولة كل الجهل حتى عصرنا هذا ، اذ قام سنة ١٩٠٢ بعض الاثريين

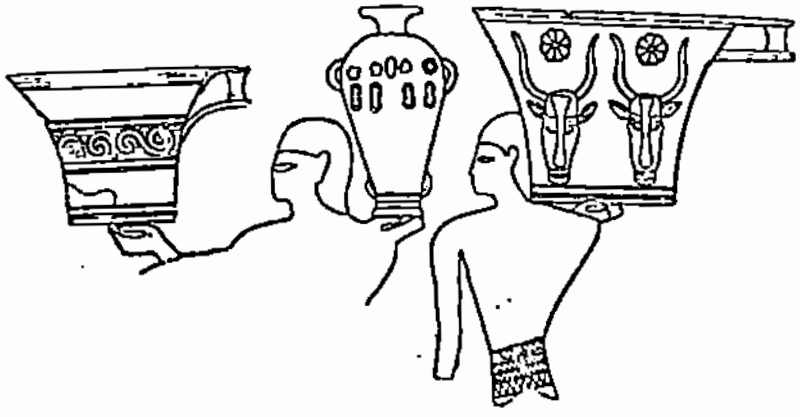

الرسم ١ : هدايا سكان جزيرة كريت الى فرعون مصر

عن مورو وداڤي (Morot et Davy)

الاميركان وباشروا الحفريات فوجدوا آثار هذه المدينة العظيمة وبقايا فنها الجميل.

هذه هي الدول التي سطت او فاز نفوذها على الشرق الادنى في القرن الرابع عشر ، وقد احتكت منافعها الاقتصادية احتكاكاً كاد يوقد شرر حروب هائلة . فكان الفضل لحكمة ملك مصر امينوفيس الثالث ، اذ توصل بدوايته لتوطيد العلاقات الحبية والسياسية بين الممالك المختلفة . فساد الوئام وعاشت البلاد السورية بسلم وهناء . ولكن لسوء الحظ لم يكن ذاك السلم سوى رماد على نار تهب لدى اول نفخة

* * *

السياسة المصرية

اختلفت الدول في طرق الاستعمار منذ القدم ، وقد ابدى المصريون من الحنكة ما يثبت تضلعهم من السياسة الخارجية والداخلية ، فهم قبل ان يحتكوا بالعدو الخارجي ، سعوا كل السعي لتوطيد سلطتهم في البلاد المحتلة

وقد اظهر الفرعون في حكم هذه البلاد حلماً شديداً ودراية اشد ، اذ ترك فيها الملوك الوطنيين الذين امن شرهم ، واكتفى بفرض الضرائب العادلة ، وطالب تسديدها بانتظام . وكي يتأكد ولاء الملوك الوطنيين ، اسر اولادهم او

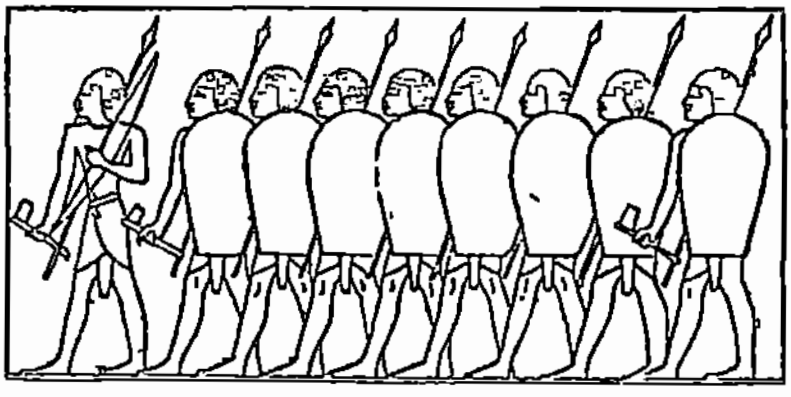

الرسم ٢ : صورة جيش المُشاة المصري على عهد الدولة الثامنة عشرة
عن موري ودافي (Morot et Davy)

انسباءهم بحجة تثقيفهم في بلاطه الملكي في مصر ، واحتفظ في حاشيته بمن نازع هولاء الملوك عرشهم ، ليخيفهم من مزاحمة خصمهم . وقد جعل الفرعون في البلاد ، لحفظ السيطرة المصرية ولجباية الضرائب المفروضة ، مفوضين سامين لهم القطع والحلّ في الامور بعد مشورة الفرعون في بعضها . وجعل ايضاً في بعض النقط الهامة اقساما من الجيش للدفاع عن البلاد المحتلة ضد العدو الخارجي والداخلي . واحتراماً لشعور الشعوب الخاضعة ، اقرّ الفرعون بالوهية آلهة البلاد المحتلة ، ولم يكتفِ بان سمح لاهل البلاد ان يبقوا على عقائدهم الدينية بل نصب بنفسه ، او بواسطة اقاربه او كبار موظفيه ، معابد جديدة لالهة البلاد ، ورمّم ما خرب منها . فكانت السيادة المصرية على هذه الحال سيادة ممدّن لا مستعمر . وقلما سلك الاقدمون هذه الطريقة قبل اليونان . هذا ما كان من امر الفرعون في سياسته مع البلاد المحتلة ، اما في سياسته الخارجية ، فقد كانت مهارته اوفر

الرسم ٣ : صورة « خازن » كنعاني ، ومعنى « الخازن » الوالي او الحاكم
عن موري ودافي (Morot et Davy)

فحين اعتلى العرشَ الفرعونُ امينوفيس الثالث، في اواخر القرن الخامس عشر، كانت بلاد الكلدان قد اصيبت بضربة اوشكت ان تقضي عليها، ولم يبقَ لها من دور الّا في الحياة الاقتصادية. فعقد معها الفرعون عهوداً حدّدت شروط التبادل الاقتصادي بين البلدين. وعلى كل فان الفرعون حرّض ملك اشور على بلاد الكلدان سرّاً، فامن شرّها. ولم يبق في وجه الفرعون من عدوّ يخشاه سوى الحثيين، لاسيما وقد فترت العلاقات معهم نظراً لما جرى من الاحتكاك السياسي. وملك الحثيين ملك عظيم مهيب، وليس له من عدوّ يقف في وجهه سوى ملك الميتاني. وبلاد الميتاني تمتد بين البلاد الكلدانية والاشورية شرقاً، والبلاد الارمنية شمالاً، والحثية غرباً، وسورية الشمالية جنوباً. فجعل الفرعون يسعى لمحالفة ملك الميتاني وصاهره، ووطد دعائم عرشه فكان له هذا صديقاً صدوقاً وخير حليف، لاسيما اذ عرف ان عون الفرعون له هو اكبر قوة ضد الاعداء المحيطة به. وحين مات الملك امينوفيس الثالث حزن عليه جدّاً ملك الميتاني، دوشراتا، فكتب الى ابنه وخلفه امينوفيس الرابع: «حين وصلني خبر وفاة ابيك مرضت من حزني. ولكني عرفت ان ابنه خلفه فقلت: كلّا امينوفيس لم يمت». وما اشبه هذه العبارة بالهتاف الذي طالما ردده البلاط الملكي الفرنسوي عند موت عاهله: «مات الملك فليحيى الملك!»

* * *

مغريات فظّة (المرفة)

مات الملك امينوفيس الثالث وقد قضى على السلام بموته. فخلفهُ ابنه امينوفيس الرابع، وهو حمو توت عنخ آمون، وقد ولي الحكم من سنة ١٣٨٠—١٣٦٢ قبل المسيح. وكان لحكمه دور مهم في التاريخ. فان كثرة الفتوح والهدايا الواردة على معبد الاله آمون جعلت سيطرة رئيس كهنة المعبد توازي سيطرة الفرعون، لا بل تفوقها. ولذا خشي الفرعون ان ينقلب عليه شرّ هذه السطوة. فاراد التخلص منه، وذلك بنشر الدعاية لاله كان من اعظم آلهة مصر القديمة، وقد رآه المصريون في جميع فتوحهم معبوداً في البلدان تحت اسماء واشكال جمة لا تخفى دونها بحقيقة طبيعته الالهية. وهذا الاله هو كوكب

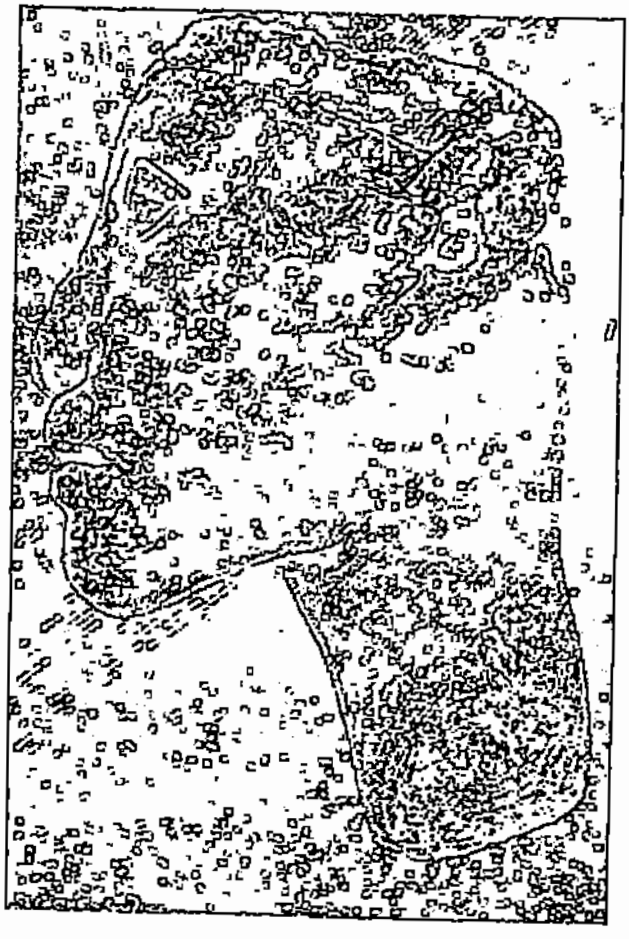

الرسم ٤ : قناع الفرعون امينوفيس الرابع

عن ماسبيرو (Maspero)

الشمس الساطع . فاعلن امينوفيس وحدة الاله الشمسي لا شريك له ، وخلافاً لما اعتاده القدماء ، اراده إلهاً لمصر وللبلاد الغربية ايضاً . وجعل يبشر اتباعه بديانة سامية ، فيقول المؤمن للاله : « ارحمني يا رب لاني سقيت العطشان ، واطعمت الجائع ، وكسوت العريان ، ودافعت عن الارملة والايتام . . . » الى ما شاكل ذلك . وقام اتباع الفرعون يحطمون باسره تماثيل الالهة ، خاصة الاله آمون ، ويضطهدون كهنتهم . وقد عثر الاثريون على عاصمة الملك محفوظة كل الحفظ

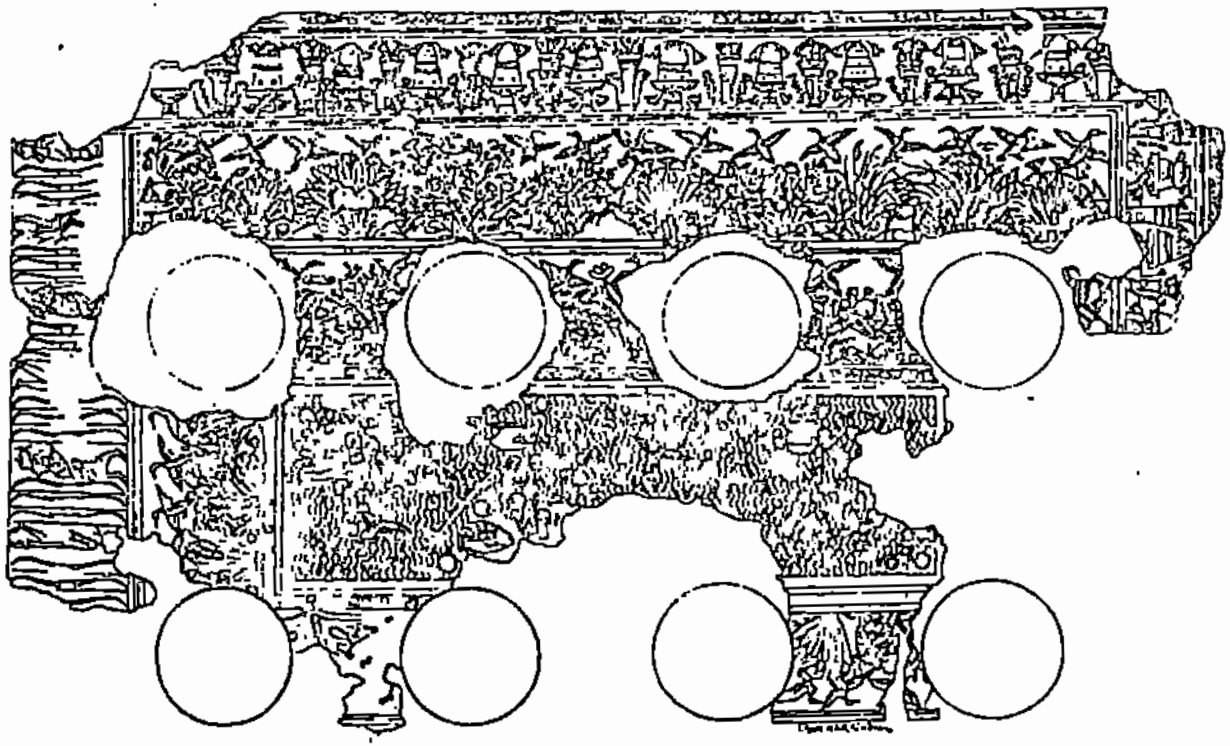

الرسم ٦ : صورة النقوش في ارض احدى الردهات من قصر امينوفيس الرابع

عن ماسبيرو (Maspero)

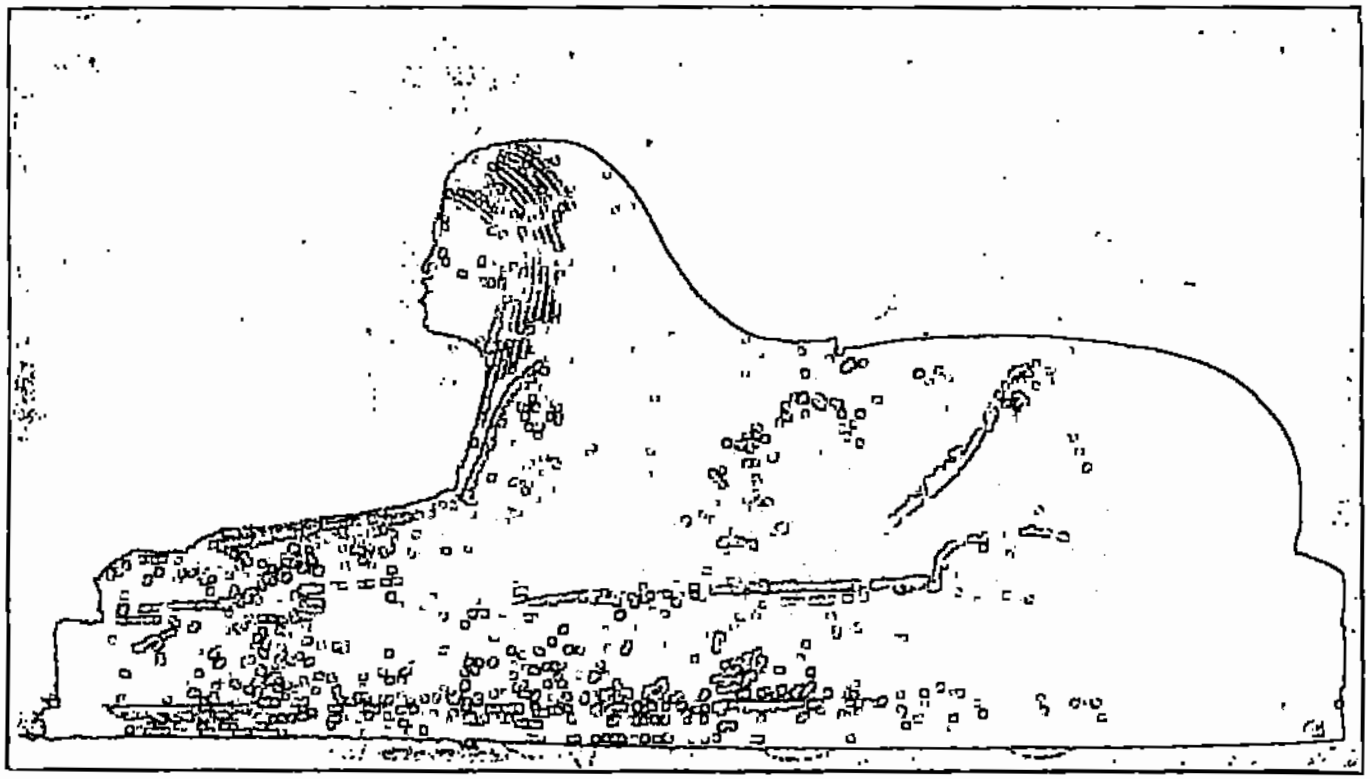

الرسم ٩ : تمثال ابي الهول المكتشف في قطنة . وهو هدية من الأميرة إيتا الى معبد الإلهة لين في قطنة .
والاميرة المذكورة من الدولة الثانية عشرة ، في القرن الرابع عشر ق . م .

الرسم ٥
الفرعون امينوفيس الرابع يبشر اتباعه في تل العارنة بديانة الشمس. والى جنبه امرأته
عن موري (Morot)

في انقاض تل العارنة ، لان توت عنخ آمون بعد موت حميه وارتقائه العرش عاد الى سياسة اجداده وهجر بلد الزندقة. واكثر هذه الآثار الواح من الطين المطبوخ حفرت عليها كتابة مسمارية ، لان هذه الكتابة كانت الرسمية في اكبر دول العصر . وبين هذه الرسائل ستة كتب أتت فرعون مصر من بلد تدعى قطنة ، وفحواها ان ملك المدينة يطلب من الفرعون النجدة ضد عدو عظيم تألبت حوله جميع ملوك الجوار ؛ وملك قطنة يشكو من تضييقهم عليه لانه بقي امينا لفرعون مصر . ثم ان ملك قطنة جعل يشدد الطلب، زاعماً ان العدو اصبح على ابواب مدينته ، وان لم تدركه نجدة الفرعون فهو هالك لا محالة ثم انقطعت اخبار ملك قطنة عن اهل مصر ولم يعرف عنه شيء فيما بعد . اما الحفريات في بلاد الحثيين ، نبهت العلماء الى نص حثي مسماري يعدد كنوز معبد قطنة ، ويقول ان ملك الحثيين بعد ان استولى على هذه الكنوز ونقلها الى عاصمته ، احرق المدينة باسرها واعتقل سكانها

حار العلماء في امر هذه المدينة المهمة ، وقد عرف عنها ما عرف. وقلما اتتنا الاخبار عن بلد كما اتتنا عن هذا، يتصل بعضها ببعض غير متنافية سواء صدرت من صديق او من عدو. لكن لم تجد الحفريات نفعاً وبقيت قطنة تعد بين المدن المجهولة حتى كتب الاب روتزفال اليسوعي مقالاً عن تمثال صغير وجد في المشرفة ، قبل الحرب واثبت كون هذا الشخص ينتمي الى نحو القرن العاشر قبل المسيح. فتولى الكونت دي مينيل دي بويسون حفريات المشرفة وهي قرية تبعد عن حمص ١٥ كيلومترا . فوجد مدينة احاط بها سور مربع في منتصف كل من

جهاته الاربع باب مؤلف من ثلاث باحات تبعاً للعادة الحثية . وقد انتشرت المدينة بمعابدها على مرتفع من الارض حماه السور من جهة ، وشفير اصطناعي من الجهة الاخرى فكان علوه نحو الستة امتار . وقد نبّه تحصين هذه المدينة الافكار فتواصلت الحفريات واذا بمعبد قد دمرته النيران ، وُجدت فيه الواح من الطين المطبوخ تعدّد موجودات هيكل الالهة نين . وقد ارتقى عهد انشاء هذا المعبد الى ثالث

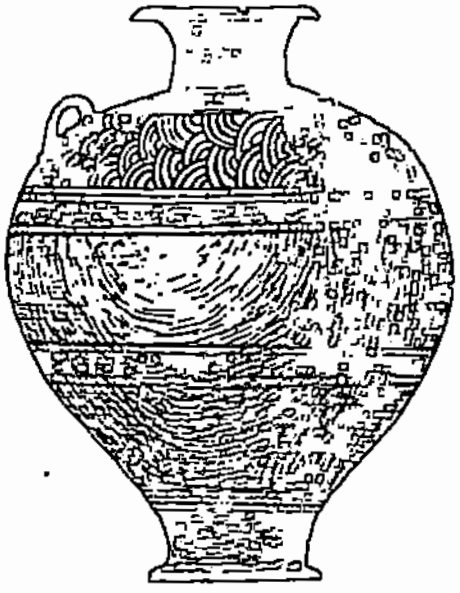

الرسم ٧
إناء خزفي وُجد في قطنة (المشرفة ، قرب حمص)

اسرة ملكت اور في بلاد الكلدان ، وهي المدينة التي هجرها ابراهيم الخليل نحو القرن العشرين قبل المسيح . وقد ابدت حفريات اور ، هذه السنة ، تحت ادارة العالم الانكليزي هولي ، كنوزاً هي للعراق ككنوز توت عنخ آمون لمصر . وبعد ان كان الكلدان النفوذ الاكبر في قطنة جعل النفوذ المصري في القرن الثامن عشر قبل المسيح يمتدّ اليها . والدليل على ذلك تمثال لابي الهول اهدته احدى

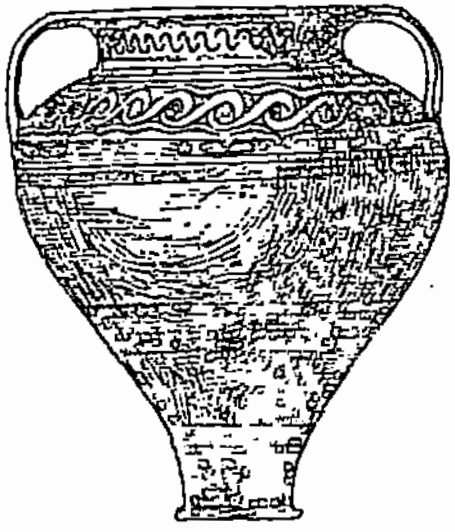

الرسم ٨ : إناء خزفي آخر وُجد في قطنة ، وطريقة الزينة فيه كثيرة الاستعمال في احدث النقوش المصرية

والرسمان ٧ و ٨ عن الكونت دي جيل دي بويسرون
(du Mesnil du Buisson)

اميرات الاسرة الثانية عشرة المصرية المدعوة إيتا لالمة قطنة الجليلة (انظر الرسم ٩) . وما زال النفوذ المصري يضعف ويقوى في قطنة حتى أحاط بها الحثيون ودمروها . وقد امتدت تجارة اهل الجزر الى المدينة قبل خرابها . والدليل على ذلك بعض الاواني الفخارية الجميلة الصنع والرسم التي وجدت في اطلال البلد . ويرى المطالع الناظرين منها في الرسمين ٧و٨ وهما من صنع جزر بحر ايجي من القرن الرابع عشر . واما الفضل في معرفة اسم البلد فيرجع الى المسيو شارل ڤيرولو ، فهو اختصاصي بالكتابة المسمارية وهو اول من اعلن قراءة اسمها

هذه بلدة لعبت بها ايدي المحرقين فبقيت منذ القرن الرابع عشر ق.م. منعقاً للغربان يسود عليها الخراب ، وتنهبها ايدي التجار ، حتى جاءت طرق القرن العشرين العلمية فبعثتها من النسيان بعد ثلاثة آلاف واربعمائة سنة من الهجر والخراب

حول مؤتمر المستشرقين السابع عشر

في اكسفرد

للاب اريك بروس اليسوعي سكرتير المؤتمر للصحافة

ان الاب بروس اليسوعي قضى عامين في كلية القديس يوسف ، ايام ازدهار المعهد الشرقي فيها ، وانكب على العلوم الشرقية ثم تخصص بالدروس الاشورية ، وعاد الى انكلترة بلاده . وهو اليوم من عمدة الرجال المعهود اليهم بالتنقيب عن آثار اور الكلدانيين لمصلحتي المتحف البريطاني ومتحف كلية بنسلفانية . لا تخفُ وطأة الحرّ الا نراه عازمًا بيننا بعد قضاء ايام العطلة ، حاطًا رحاله في بيروت ، وهو على طريق العودة الى العراق . ولما انعقد مؤتمر المستشرقين أخيرًا في أكسفرد ، عين فيه الاب بروس منتدبًا خاصًا ليوالي الصحافة بالافادة عن اهم اعمال المؤتمر . فاخذت عنه التيمس ، والديلي تلغراف ، والمورننبوست ، والاسياتيك ريفيو ، والنيراليست وغيرها من امهات الصحف والمجلات ما نشرته على قرائها ، وقت انعقاد المؤتمر . وقد تفضل حضرته ولخص بعض اخباره لقرّاء « الشرق » ف . ت .

اول مؤتمر عقده المستشرقون كان في باريس عام ١٨٧٣ ، ثم تلاه خمسة عشر مؤتمرًا كان اخيرها في اثينة عام ١٩١٢ . والمؤتمر الحالي هو الاول منذ نهاية الحرب . وقد عاد الفضل الاعظم في انعقاده ونجاحه لكلية اكسفرد

كلية اكسفرد مجموعة معاهد علمية يبلغ عددها الاحد والعشرين ، كل معهد منها قائم بنفسه ومستقل عن غيره ، ماديًا وادبيًا ومعنويًا ؛ وله اساتذته